المحاضرة السادسة:

خصوصيات واشكاليات التنظير للوسائط الجديدة

تسعى هذه الورقة للوقوف على الخصوصيات التي تتميز بها مسألة التنظير لعلوم الإعلام والاتصال في البيئة الرقمية الجديدة والتي ترتبط أساسا بخصوصيات الظاهرة الاتصالية في بعدها التقليدي، إذ لا يمكن الحديث عن التنظير للوسائط الجديدة دون التعرض لبعض القضايا ذات الصلة بجوهر علوم الاتصال وواقعها، وهذه القضايا تمثل في جوهرها الملامح المميزة لعلم الاتصال نفسه، من حداثة نشأة علم الاتصال إلى تعقد في الظاهرة الاتصالية وانفتاحها على كافة الممارسات الإنسانية إضافة على التبدل والتغير المستمر في أشكال الفعل الاتصالي، وإضافة على الإشكالات المرتبطة بالظاهرة الاتصالية تثير الوسائط الجديدة إشكالات خاصة من قبيل التداخل في عناصر العملية الاتصالية ضمن الفضاءات الافتراضية وإشكالات أخرى مرتبطة بمصادر المعلومات في فضاءات الوسائط الجديدة إضافة على الإشكالات المنهجية ومسألة التجديد المنهجي في بحوث الوسائط الجديدة.

1. خصوصيات التنظير للوسائط الجديدة للاتصال: لا يمكن الحديث عن التنظير للوسائط الجديدة دون التعرض لبعض القضايا ذات الصلة بجوهر علوم الاعلام والاتصال، هذه القضايا تمثل خصوصيات علم الاتصال نفسه وسماته المميزة سواءا في بعده التقليدي أو في بعده الوسائطي، ونذكرها فيما يلي:

❖ **حداثة نشأة علم الاتصال:** ارتبط فعل الاتصال بالممارسات التقليدية للإنسانية منذ وجود البشرية، أما الاتصال كعلم فهو حديث ظهر مع النصف الثاني من القرن العشرين بعد تحديد موضوعه المتمثل في الظواهر الإعلامية، أما من ناحية المناهج والنظريات كأساس لأي علم، تم توظيف المناهج والنظريات المتداولة في العلوم الإنسانية على العموم (علم النفس، علم الاجتماع...إلخ) في تفسير الظاهرة الاتصالية والتنظير لها ولآثارها.

❖ **الاتصال جوهر كل الممارسات الإنسانية:** يوجد الاتصال في مفترق كل العلوم بل وفي مفترق كل الممارسات الإنسانية، وتجسد أكثر في ظل تعاظم دور الوسائط الاتصالية وتغلغلها في النسيج الاجتماعي للفرد الذي أصبح وجوده وجودا رقميا افتراضيا لا وجودا جسديا فيزيائيا، وهذا هذا التغير الراديكالي على مستوى الممارسات والحضور القوي للاتصال في كافة الأنشطة الإنسانية يجعل من الصعوبة احتواء الظاهرة الاتصالية منهجيا وابستمولوجيا لتعقدها وتعددها، حيث يؤكد **دانييل بونيو (Daniel bougnoux):** " من الواضح أن علوم الاعلام والاتصال في تباينها الحالي تملأ بشكل سيء معايير العلمية، فعلوم الاعلام والاتصال تتعلق بكثير من الناس في الوقت نفسه كما توجد متضمنة هنا أو هناك في الثقافة وفي الجسم الاجتماعي" .

❖ **غياب الثبات النظري في حركة بناء النظرية في علم الاتصال:** وهو غياب مرده استناد البحث العلمي في علوم الاعلام والاتصال على الأبعاد المعيارية واتجاهه إلى القياس وفقا لمعطيات الواقع الآني الذي يجري قياسه، وقد نتج عن هذا هشاشة في البناء النظري لعلم الاتصال وأصبح من سمات نظرياته عدم ثباتها أمام التحولات المجتمعية، ويعود ذلك في الغالب إلى نوعية الوسيلة الإعلامية السائدة في الفترة المدروسة وما تحدثه من تأثيرات على الفرد وعلى المجتمع فبدء ببحوث التأثير المطلق والتي اعتبرت الرسائل الإعلامية مثيرات تجد صداها واستجابتها لدى الجمهور، إلى بحوث التأثير النسبي والتأثير على مراحل وصولا إلى بحوث تلقي المضامين الاتصالية في سياقات اجتماعية وثقافية متعددة وبحوث الاستخدام وغيرها.

❖ **التغير المستمر في أساليب وأشكال الفعل الاتصالي:** وذلك لأن الاتصال يقوم على وسائل سريعة التطور والتغير حيث لا تكاد تستكمل الوسيلة دورة من الزمان حتى تستبدلها وتحل محلها وسيله أكثر قدرة، وهذا التغير المستمر هو ناتج عن المخترعات التقنية المتلاحقة التي تطرح أمام باحثين في مجال الاعلام والاتصال رهانات المواكبة والملاحقة من أجل تفعيل حركة للتنظير قادرة على تفسير الفعل الاتصالي في ظل هذا التغير الدائم.

❖ **سمة التعقيد في الظاهرة الاتصالية:** إذ أن مجمل الممارسات الإنسانية الاتصالية هي ظواهر وممارسات تقرأ في الكثير من جوانبها السوسيو -ثقافيه والتاريخية ومن زوايا علمية مختلفة، فالظاهرة الاتصالية تتواجد في كل التقاطعات الأساسية للنظريات الفلسفية والعلوم الاجتماعية، وحسب **بينجر (Beniger)** فإنه يصعب تناول الظاهرة الاتصالية بعيدا عن التعقيد ،الأمر الذي يتطلب تفعيل منظور التجاسر بين المعارف والتخصصات إذ غالبا ما يتم إدراك الدراسات الاتصالية على أنها حقل اهتمام أكثر منها تخصص في معناه التقليدي أي بمعنى أنها تشكل موضوع اهتمام يمكن للباحثين أن يطبقوا فيه مختلف المناهج السوسيولوجية.

❖ **السياق وأهميته في فهم الظاهرة الاتصالية:** فلا يمكن فهم الاتصال من دون فهم السياق العام الذي يحيط به، وتشير كلمه السياق إلى الطريقة التي يتصل بها الأفراد والظروف التي تحيط بعملية الاتصال، وقد أجمع العديد من المنظرين على أهمية السياق في فهم الظاهرة الاتصالية ومن بينهم **جاك كوزيني (Jacques cosnier)** الذي أكد أن مفهوم السياق يعتبر دون شك واحد من أهم المفاهيم التي تبقى ضرورية أكثر لفهم الممارسات الاتصالية الإنسانية وحتى الحيوانية بشكل أوسع.

❖ **طبيعة البيئة الاتصالية الرقمية:** شكلت وسائط الإعلام الجديدة أو ما يسمى بالميديا وفضاءات الاتصال الافتراضي مجالا بحثيا استنفر جهود البحث في الظاهرة الاتصالية في بعدها الوسائطي، على اعتبار أن الوسائط الجديدة تلقى اهتماما علميا متزايدا بكونها ظاهرة آخذة في التوسع والانتشار مستحدثة إشكالات عده على المستوى المعرفي والابستمولوجي، كما استحدثت ممارسات وأشكال اتصالية جديدة على غرار الهوية الافتراضية المتعددة والتمثل الهوياتي وتعقيدات الممارسات على الشبكات الاجتماعية عبر هذه الميديا

والتأثيرات المتشابكة والمتداخلة مع الوقائع الاجتماعية المختلفة وطبيعة المضامين المطروحة ومدى إمكانيه التحقق من صحتها .

2. إشكالات التنظير في ظل الوسائط الجديدة: انطلاقا من الخصوصيات والملامح السالفة الذكر والخاصة بعلوم الإعلام والاتصال طرحت البيئة الاتصالية التي تقوم على الوسائط الجديدة للاتصال جملة من الإشكالات نذكر منها:

- **اشكالات خاصة بانفتاح الظاهرة في بعدها الافتراضي:** تعتبر علوم الاعلام والاتصال من العلوم المتفرعة والتي بدأ البحث فيها من خارج التخصص مما شكل انفتاحا للعلم وهشاشة في بنائه النظري، وهو الحال بالنسبة للظاهرة الاتصالية في بعدها الرقمي، فقد بدأ البحث فيها وحولها من خارج التخصص، حيث نشأ معظم التنظير لبحوث الميديا الجديدة في مراحلها الأولى في مجال لا ينتمي إلى الوسط الإعلامي وكان الكثيرون ممن بادروا بوضع أسسه الفكرية والتكنولوجية متخصصون في مجالات بعيدة عن علوم الاعلام والاتصال و متخصصون في حقل الرياضيات والعلوم الفيزيائية.

- **اشكالات مرتبطة بتداخل عناصر العملية الاتصالية في بعدها الوسائطي:** ساهمت الوسائط الجديدة على اختلافها في إحداث تغييرات راديكالية في أنماط التواصل البشري، بل وساهمت في خلق فضاءات تواصلية جديدة تتقاطع أو تختلف عن الفضاءات التواصلية التقليدية. فالإنترنت والوسائط الجديدة ليست مجرد وسيط تقني فحسب، إنما هي فضاء تتماهى فيه الحدود بين العام والخاص بين الافتراضي والواقعي، وتشكل مجالا شبكيا يتحول الفرد فيه باستمرار ما بين موقعي الارسال والتلقي، وهو بهذا المعنى يمكن النظر إليه على أنه نموذج تواصلي جديد لا يتعلق بعملية بث مركزية ولكن يتفاعل داخل حالة ما يسهم كل فرد (مرسل-مستقبل) في اكتشافها بطريقته أو تغييرها أو الحفاظ عليها كما هي، ولقد أحدثت الانترنت بوصفها العنصر الرئيسي في هذه المنظومة تغييرات بنيوية في خريطة الاعلام بشكل عام وفسحت المجال لتعددية إعلامية افتراضية.

- **اشكالات مرتبطة بمصادر المعلومة في الفضاء الافتراضي:** توفر الفضاءات الافتراضية بيئة ثرية من المعلومات لم تتوفر مع الوسائل التقليدية، الأمر الذي طرح اشكالات ترتبط بمدى مصداقيه البيانات المتاحة في الميديا الجديدة، كما تعتبر عمليه تحديد المضامين في الفضاءات الاتصالية عمليه صعبة على اعتبار ان صفحات الويب ديناميكية وغير ثابته ومتغيرة باستمرار حيث قد تختفي بطريقه عرضية بفعل حذف المحتوى من الناشر أو تغييره أو تعديله أو نتيجة لعطل تقني ما، مما يجعل منها معطيات لحظية آنية قد لا تبقى ثابتة بعد جمع الباحث للمعطيات ذلك أن إحدى خاصيات الظاهرة الرقمية هي قابليتها للانعدام بتعبير **ستيفاني فيال** أي قدره المادة الحاسباتية في حقيقتها الفيزيائية على التلاشي تماما من حقل الواقع دون أن تترك أثرا.

➢ **اشكالات مرتبطة بالتجديد المنهجي في تناول الظاهرة الاتصالية في الفضاء الافتراضي:** كثر الحديث حول المناهج الأنسب لدراسة الظاهرة الاتصالية في الفضاء الافتراضي بتعقدها وسماتها المتعددة فمن المعلوم أن الوسائط الجديدة ووسائل الاعلام في البيئة الرقمية أحدثت تحولات كبيره في المفاهيم والوظائف والمناهج والتأثيرات، هذه التحولات وضعت الباحثين أمام تحديات بحثية تتعلق بتطبيق المناهج والنظريات التقليدية على البيئة الرقمية واستحداث مناهج ونظريات وأدوات تتوائم مع الخصائص المتعددة للفضاء الوسائطي.

وقد انقسم الباحثون حول البحوث التي تتخذ من الفضاءات الافتراضية مجالا لها إلى ثلاثة فرق :فريق من المتشائمين يرى أن تكنولوجيا الفضاءات الافتراضية التي توفر مصادر جديدة للمعلومات تشكل خطرا جديا على التقاليد العلمية وأشكال البحث العلمي الراسخة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفريق من المتفائلين يرى أن التكنولوجيا الرقمية تدشن عصرا من التجديد المنهجي نظرا لقدرتها الرهيبة على جمع أكبر عدد من البيانات في اسرع وقت وإظهارها على الشاشة وتحليلها مما يسمح لها بتطوير مناهج البحث القائمة وابتكار أخرى جديدة، فريق ثالث يمكن أن نصفه بالواقعي يؤمن بأن التطور هو سنة الوجود وأن التجديد المنهجي كان دائما مطروحا على جدول أعمال البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية.